مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 5 السنة: 2021
ص: 817 - 839 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الذات وتمثّلاتها في رواية "مهاجر ينتظر الأنصار لمعمر حجيج"

The Self and Its Representations in the Novel of "An immigrant waiting for supporters" by Maamar Hadjidj

شهيناز بوصبع[1]* نجوى منصوري[2]
Chahinez Bousbaa[1]/ Nejoua Mansouri[2]
مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة
جامعة باتنة-1- الحاج لخضر/الجزائر
Université de Batna-1- Hadj Lakhdar/Algérie
chahinez.bousbaa@univ-batna.dz[1] / nejouan@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/28	تاريخ القبول: 2021/0829	تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص البحث

تحتفي بعض الروايات الجزائرية بالكتابة عن الذات في صراعها مع الوجود وفي إحساسها بتحولات زمن الحداثة وما بعدها، ولعل الكتابة عن الذات تلتقي وكتابة السيرة في عرض جوانب من حياة المبدع، ولكنها تفترق عنها أو تتجاوزها في محاولة كشف المسكوت عنه تاريخيا واجتماعيا وثقافيا.... مما يشكل مصدر قلق للذات الكاتبة.

لعل الرواية الجزائرية عبر أقلامها المفكرة والباحثة عن حقيقة ما يحدث حولها، قد أصبحت كتابة الذات التي تتبع الحدث لأجل أن تصنع عالما إبداعيا يتخطى حدود الفكرة ويتخطى حدود الواقع.

تبعا لهذا التصور نتساءل عن جدوى احتفاء المتن الروائي " مهاجر ينتظر الأنصار" لمعمر حجيج بالذات الكاتبة، وكشف عوالمها التي تمتد بين الواقعي والتخييلي.

الكلمات المفتاح: الذات، المرجعية الفكرية، التشكيل السردي.

Abstract :

Some Algerian novels are characterized by writing about the Self in its struggle with existence and its sensation of the transformations of modernism and postmodernism. Perhaps, writing about the Self converges with writing a biography in presenting aspects of the creator's life, but it differs from it or transcends it in an attempt to reveal what is historically, socially and culturally unsaid.… Which constitutes a source of anguish for the writing Self.

Perhaps, the Algerian novel through its thinking pens which search for the reality of what is happening around them, writing about the Self which follows the event

* شهيناز بوصبع: chahinez.bousbaa@univ-batna.dz

in order to build a creative world that transcends the boundaries of the idea and goes beyond the limits of reality. According to this perception, we are wondering about the usefulness of ingraining the novelist's text, "An Emigrant Waiting for the Supporters" by Maamar HADJIDJ about the writing Self and revealing its worlds that stretch between the realist and the imaginary.
Keywords : self, intellectual reference, narrative formation

مقدمة:

إن كتابة الذات، عبر أرجاء العالم الروائي، هي كتابة تجمع بين المعرفي من جهة والواقعي المادي من جهة ثانية، بحيث تصبح عناصر السرد قاعدة يلتحم فيها العنوان بالرؤيا، والسارد بصاحب التجربة، والمكان بفضاء الواقع والحلم معا...وهكذا تتنامى عناصر السرد للوصول إلى نسيج تفرضه الذات الكاتبة على المتن والمبنى الحكائيين.

نحاول من خلال هذه الدراسة تتبع تمثلات الذات عبر عناصر تشكيل السرد، وعبر تشكلات البوح والإضمار، قلق الذات وسكينة الواقع السردي، السلطة والخضوع، القيمي والمادي... وغيرها من المعاني التي تجمع الذات الكاتبة بالذوات الأخرى، سواء شاركت في فعل الكتابة أو تشارك في فعل القراءة. انطلاقا من هذا التصور، نحاول تتبع جماليات تشكّل عناصر السرد في التحامها بالذات الكاتبة في تجربة "مهاجر ينتظر الأنصار"، ونطرح في ذلك جملة من التساؤلات مفادها:

-كيف تتجاوب الذات القلقة ومجريات التشكل النصي للرواية؟

-ماهي الأبعاد الفكرية التي تتجلى عبر تداعيات تشكل النسيج السردي؟

-كيف تكشف الذات عن حضورها المعرفي وتقدّم أنموذجا للذوات القارئة عبر خصوصية التشكيل الفني وأبعاده الابستمولوجية.؟

أولاً: العنونة وسؤال الذات:

يمكن للقارئ أن يستشف علاقة الرواية بالذات الكاتبة انطلاقا من العنوان الذي يُعد مفتاحا للنّص وعنصرًا أساسيا فيه، فهو يقوم على تركيب نصي يعد مفتاحا منتجا، ذا دلالة ليس على مستوى البناء الخارجي للعمل فقط بل يمتد إلى البُنى العميقة ويستفز فواصله، ويدفع السلطة الثلاثية: (**المبدع، النص، المتلقي**). إلى إعادة إنتاج ،تتيح لعوامل النص الانفتاح على أكثر من قراءة، فهو عتبة تضم دلالات رمزية مضغوطة تنفرج مع امتداداتها في النص، ولذلك يعد مدخلا إلى عالمها الداخلي، كذلك هو تلك

الثريا التي تنير عتبات النص، وجواز السفر الذي يسمح للمتلقي بالسياحة في عالم النص، فالعنوان عبارة عن رسالة متبادلة بين المرسل والمرسل إليه ،مسكوكة بشفرة لغوية شاعرية جمالية مضمونة بعلامات دالة يغلب عليها الطابع الإيحائي، وهو كذلك: "بنية لغوية مفتوحة البداية ومغلقة النهاية تبدو فيه الكلمات أصول من قامتها، وتستذكر أكثر من طاقتها على قراءة الماضي والهجس بالمستقبل"[1]، هذا يعني أنه مفتاح لولوج النص الأدبي، وكشف أغوارهِ ودلالته العميقة، فهو نص مختصر يلخص كل الوقائع والأحداث والقضايا، ويختزلها في كلمةٍ أو في جملة قد تطول، وتقصر، وكلما كان العنوان مختصرًا، اتسعت دلالته وقويت طاقته الإشعاعية، وامتد فضاؤها الإيحائي، وانفتحت آفاقه الرمزية لاعتماده على التكثيف والمجاز والرمز والمطلق الدلالي. ولم تظهر العناية به إلا بظهور علم السيمياء في القرن العشرين، هذا الأخير الذي أولاه عناية خاصة وعدَهُ نواة صلبة ومنطلقا أساسيا لإنتاج الدلالة، وتأطير التفاعلات التواصلية واحتضان قدرات الإنسان الإبداعية ورؤاهُ الفنية والجمالية والفكرية.

ويؤدي العنوان دورًا جوهريا في النص باعتباره بؤرة تلتقي فيه كل مكونات النص، وقد أكد أغلب النقاد على:" أنه العنصر المرسوم سيميولوجيا في النص، بل ربما كان أشد العناصر وسما"[2]، وتكمن دلالته في كونه يحمل الصورة الكلية عن المضمون فهو باختصار يحوي المضمون، نصا صريحا، ونصا غائبا حقيقة ومجازا.

إضافة إلى ذلك، فهو يشكل الجسر الذي يربط القارئ بالنص، لذلك لابد من الاهتمام بصياغته وإخراجه في صورة جمالية جذابة تساهم في تسويق المعرفة وتشويق القارئ، وجذب اهتماماته، وتركيز وعيه بأهمية ما يلقاه، فالعنوان يحتل المركز الأول في أي عمل أدبي، وأهميته تكمن في تلك الإيحاءات والدلالات التي يحملها، فالعنوان يوحي بالعديد من المقاصد، ويوضح الكثير من الدلالات، وهو يكشف قبليا على محتوى النص، ممهدًا له.

وبالوقوف عند عتبة العنوان في "**مهاجر ينتظر الأنصار**" تنفرج زاوية رؤية النص، ذلك لأنه أول لقاء يقع بين النص وقارئه، ويحمل بؤرة مقصدية لمبدعه، فوجدنا الروائي يؤسسه منمقا مفخخا ذا سَبْكٍ وحَبْكٍ وغوايةٍ، فعنوان مهاجر ينتظر الأنصار مربك ومشوّق في آن واحد، ذلك لأنه نُحت من قبل المخيلة الإبداعية، ولم يأت تلقائيا، حيث نتلمس فيه قصدية اختيار موقف تاريخي إسلامي ومسمى لأشخاص متميزين هم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمهاجر اسم فاعل للفعل هَاجَرَ من الهِجْرَةُ والتي تحيل إلى موضوع الغربة، والمهَاجِرُ من هَجَرَ ما نهى الله عنه، والهُجْرَةُ الخروج من أرض إلى أرض، وتَهْجر فلان تشبه بالمهاجرين الذين هاجروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولفظة المهَاجِر واردة في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[3]، فكل من فارق بلده من بدوي أو حضري أو سكن بلدا آخر فهو مهاجر. والعنوان في الرواية جاء جملة مركبة تحتوي على مبتدأ والذي يتمثل في "مُهَاجِرْ" لخبر محذوف تقديره "هو"، والجملة الفعلية "ينتظر الأنصار" التي جاءت في محل رفع خبر.

يحمل عنوان (**مهاجر ينتظر الأنصار**)، بعدا تعالقيا مع التاريخ الإسلامي، المتمثل في هجرة سيدنا **إبراهيم** من وادي **الرافدين** إلى **فلسطين**، و**مصر** و**مكة**، وكذلك مع حادثة الهجرة النبوية، هجرة **الرسول صلى الله عليه وسلم** من **مكة** إلى **المدينة**، وفي كل هجرة من تاريخ الإنسانية يقابله انتظار الأنصار، والملاحظ للعنوان يجده يحمل حلم الهجرة إلى مكان أفضل، فكل هجرة تحققت نهايتها بنجاح سواء في التاريخ الإسلامي أو في المجتمع الجزائري ...يأتي بعدها الفرج والراحة والاطمئنان، فاستقر في مخيال المجتمعات العربية والإسلامية وحتى الإنسانية. أن الهجرة حلم يحمل معه تحقق الأماني، ولذلك يوحي العنوان بأنه حلم الذات الذي تشترك فيه والجماعة، ولعل ورود من يقوم بفعل الهجرة بصيغة المفرد يؤكّد ذلك.

ثانيا–جدلية السارد/الذات:

السارد عادة ما يكون هو" الشخص الذي يروي الحكاية أو يخبر عنها، سواء كانت حقيقة أو متخيلة ولا يشترط فيها أن يكون اسمًا متعينًا، فقد يتقنع بضميرها أو يرمز له بحرف..."[4]؛ فالسارد هو المفتاح المناسب لفهم النص، حيث يختاره الكاتب ليختفي خلفه وهنا يكمن الخيال ويقدم لنا بواسطته نصا أدبيا؛ فهذا هو الدور الذي يؤديه الكاتب فيصبح أشبه ما يكون بالممثل.

وغالبًا ما يكون السارد في الرواية، "العنصر الذي يحمل وجهة نظر صاحب النص، فهو يتمثل مرجعيات الكاتب وتوجهاته الفكرية والأيديولوجية من خلال آرائه ومواقفه المستقلة والواضحة في السرد، أو المؤيدة لآراء شخصية البطل عادة، أو شخصيات متعددة تتبنى الرأي أو التوجه الأيديولوجي ،ثم تتنوع مواقفها بحسب طبيعة كل شخصية في السرد، وقد يتجاوز السارد عالمه السردي فيتماهى في ذاكرة المبدع من خلال ارتداده إلى الماضي التراثي، ووقائعه التاريخية."[5]؛ وهو ما يحيلنا إلى أنه قد يكون –السارد–

صاحب النص الروائي المكتوب على الغلاف، وقد يكون شخصية مستقلة أوكلت إليها مهمة السرد، أو يكون رمزًا لالتقاء الماضي والحاضر بالمستقبل.

وتتعدد أوجه مقام السارد في الرواية، فقد يكون السارد صاحب النص الروائي المكتوب على الغلاف، وقد يكون شخصية مستقلة أوكلت إليها مهمة السرد، أو يكون رمزا لالتقاء الماضي والحاضر بالمستقبل مخضرما في أيقونة الرواية. وحسب "ميخائيل باختين" فإن متلقي النص يقرأ محكيا للسارد ومحكيا آخر يختفي وراء الأول وهو محكي الكاتب؛ فكل لحظة من المحكي تكون مدركة بوضوح على صعيدين: على صعيد السارد، وحسب منظوره الغيري الدلالي والتعبيري، ثم على صعيد الكاتب الذي يعبر عن نفسه بطريقة منكسرة داخل ذلك المحكي ومن خلاله.

وفي **الرواية السير ذاتية** التي يتداخل فيها المحكي التخييلي مع المحكي من سيرة الروائي، يهيمن السارد، متمثلا للذات ويقدم مواقفا يحدد من خلالها رؤية الذات للعالم الذي يحكيه وأحداثه ومواقف شخصياته[6]، ومن هنا تنشأ قراءة المحكي السردي في هذا النوع من الروايات من خلال العلاقة التي يقيمها القارئ والسارد وتقوم على الإدراك المتعالي الذي يكشف عن إنتاجية النص ودلالات هذا الوضع السردي ويحدث ذلك من خلال كشف الوضعيات المختلفة للسارد، ومن ثم كشف الغاية التي يهدف إليها الكاتب عبر سارده في تجاوز السرد إلى أغوار الذات.

وما يثير انتباه قارئ متن **رواية مهاجر ينتظر الأنصار** يلحظ تعدد الشخصيات الساردة، بين سارد فعلي باث للأحداث، ممارس للحكي "لا يمكن وضعه على مستوى التعادل الوظيفي مع بقية العناصر المكونة لهذا العمل... فهو الذي يمسك بكل لعبة القص ليقيم منطق البنية"[7]، ويتجسد هذا السارد الفعلي في شخصية "مراد" الأساسية المحورية التي ترتكز عليها الرواية، وتتمحور حولها الأحداث من بدايتها إلى نهايتها ولها الدور الكبير والفاعل في تحريك أحداث الرواية وتوجيه مساراتها وتفعيل نشاطها، يرمز اسمه إلى التفاؤل والأمل والرغبة في كل ما هو جميل وشيق وجذاب، وهذا ما ينطبق عليه في **رواية مهاجر ينتظر الأنصار**، حيث نجده متفائلا بخصوص إنجاز بحثه، وامتلاكه رغبة القيام بمغامرات شيقة للوصول إلى هدفه، لكنه سرعان ما يفقد هذه الرغبة عند مواجهته لمشاكل عديدة عرقلة مسار بحثه، هو شاب رمت به قساوة الحياة في صحراء غرداية ،التي ذهب إليها لإنجاز بحثه فأرغمته على الإبحار في مجتمعها الميزابي الغامض بطوائفه المتشعبة. **فمراد** طالب في جامعة السربون يدرس تخصص علم الاجتماع، تحصل على شهادة الليسانس، كان متفوقا في دراسته وعلى رأس دفعته في الدراسات المعمقة، لذلك

اختاره أستاذه من بين الطلبة لتحضير أطروحة الدكتوراه في علم اجتماع الطوائف الدينية في مدينة غرداية بحكم تفوقه في الدراسة في جامعة السربون، وأغرقه في بحر المجتمع الميزابي وأعماقه المجهولة المظلمة، وكلفه بدراسة عادات وتقاليد وأعراف وطوائف –هذا المجتمع الميزابي–، وللخوض في هذا البحث لابد له أن يتعمق في دراسة المرأة الميزابية التي تعيش وسط المجتمع الميزابي، والتي ستكشف له عن أسرار ذلك المجتمع وطوائفه الدينية المختلفة، حيث يقول السارد على لسان **مراد** "فرض عليّ أستاذي بعد أخذ ورد أن أحضّر أطروحتي عن المرأة اللغز في المجتمع الميزابي... هي كلؤلؤة مسجونة في صدفتها ويجهلها المستشرقون الفرنسيون"[8]، فهو لن يجد إلى ذلك سبيلا إلا عن طريق المرأة الميزابية التي تمثل خزانها الوحيد، ليكون بذلك المجتمع الميزابي والمرأة الميزابية محور بحثه الذي كلفه به أستاذه السربوني، حيث أراد منه اكتشاف أسرار المجتمع الميزابي أن يصبح كولومبس الجزائر، ويكون بحثه إنجازا عظيما يضاف إلى سجل تاريخ البشرية ويسجل فيه حرف من ذهب، حيث الأستاذ "أريدك أن تكون كولومبس الجزائر وتقدم جوهرة المعرفة العلمية المختبئة المجهولة من العالم السفلي إلى العالم العلوي في طبق من ذهب"[9]، تلتحم شخصية مراد وذات الكاتب حينما نستشف مدى ثقل الهم الذي يحمله وشدة تمسكه بحلم يبحث عن تحققه، ثم إنه يعيش تجربة نجد بأنها أكبر من كونها تجربة وهمية من نسج الخيال، وذلك لاقترانها بأحداث حقيقة وقعت في مرحلة تاريخية مرت بها الجزائر. إن وجود **مراد** شخصية مركزية، وسارد مهيمن، يوحي بوجود علاقة مباشرة بينه وبين الذات الكاتبة، إن لم نقول إنه المبدع ذاته.

وإلى جانب **مراد**، نلحظ وجود شخصيات ساردة، ولكنها تختلف عن السارد المهيمن في كونه سارد فعلي باث للأحداث ممارس للحكي له السلطة الكاملة في ذلك، فهي شخصيات فاعلة تمارس الحكي، وإلى جانبها نجد أيضا شخصيات ثانوية غير فاعلة، حيث تختلف هذه الشخصيات وتتباين باختلاف أعرافها فمن فرنسا **أستاذ مراد السربوني** الذي ظل يشحنه بأفكاره السربونية التي تحمل كل معاني التعالي والرفعة وطموح الوصول إلى أبعد الحدود فيما يتعلق ببحثه، فمن شده شغفه باكتشاف أسرار المجتمعات الإسلامية ومذاهبها المتشبعة كان على الدوام يحقنه بأفكاره لمجارات ذوي العقول الراجحة، والعلم الواسع، والذكاء الخارق كالعلماء والمفكرين والفلاسفة، والأدباء، وغيرهم حيث جعلته أفكاره مثل العجل السمين الذي يعرض كل يوم للبيع ولا يُشترى حيث يقول "ماذا يفيدني هذا الهذيان من أستاذي السربوني حيث أصبحت عبدًا معروضا في سوق النخاسة للبيع والشراء؟ جسوا جسمي كله وجدوه عجا سمينا... سعري لا يقل عن مليون أورو..."[10]، هذا ما يؤكد لنا أن **الأستاذ السربوني** متعلق

أشد التعلق بفكرة إنجاز هذا البحث، حتى أنه لم يأبه لحال مراد بعد موت الصافية وحزنه عليها، فقد استمر في الاصرار على متابعة البحث، فهمه الوحيد هو نتاج **مراد/ الإنسان** وليس مراد/ **الإنسان** في ذاته. ولذلك يظهر السوربوني، أستاذ القيمة المادية وليس أستاذ القيمة الروحية، وهو يمثّل نماذج كثيرة تتعلق بالماديات ولا تكترث للقيم الإنسانية، ولعلها النماذج التي تنجرف وراء الغرب، وتظهر الذات عبر شخصيتها المحورية مراد معادية لهذه النماذج، وتقتنع بذلك تدريجيا عبر التجربة.

ومن الجزائر على اختلاف مناطقها نجد شخصية **الشيخ الجليل**، وهو ممن شاركوا في الثروة التحريرية وتقاسموا همومها وأحزانها، فهو يتمتع بحنكة كبيرة وخبرة واسعة في الحياة، كما له إطلاع واسع على تاريخ الإنسان.

تشكّلت بين الشيخ الجليل ومراد علاقة وطيدة بحكم اشتراكهما في هدف واحد وهو طريق البحث عن الجذور فالشيخ يبحث عن جذوره وأصوله، ومراد يبحث عن جذور المجتمع الميزابي وحقيقته وتاريخه، بالإضافة إلى ذلك نجد مراد يشبه إلى حد كبير الشيخ الجليل في ملامح وجهه، وتصرفاته ومميزات شخصيته، إنه من الذوات الساردة التي تلتحم والذات الكاتبة في البحث عن الهوية.

ونجد إلى جانب ذلك **شخصية الضاوية** التي لم يكن لها حضورًا كبيرًا وواسعًا في الرواية ومن أهم ما ورد عنها في الرواية أنها ذات شخصية فذة قوية جبارة لا تهزم، لأنها تمثل غرداية بشعبها وطوائفها وأسرار مجتمعها الغامضة، وكأنها في الرواية هي من تحتفظ بمفتاح نجاح مراد في بحثه ولا تريد تسليمه له. وإلى جانب هذه الشخصية –الضاوية– نجد شخصية **الصافية** التي هي خطيبة مراد الذي قدمها له أخوه **الحسين** على طبق من ذهب لتكون عروسته المستقبلية.هي شخصيات فاعلة في بناء عالم الرواية، تقوم بوظيفتين، المشاركة في بناء القصة والمشاركة في السرد أو الحكي، فالسارد يمارس لعبة السرد، يظهر فيها حينا مهيمنا على الأحداث يحمل رؤى وأفكار ويبحث على تحقيقها، ويكون حينا آخر اشتراكيا يتقاسم وجهات نظره ومن يشاركوه في فعل الحكي، وكأننا بالذات الساردة تتبنى قضية وتحاول الدفاع عنها وتشارك ذواتا أخرى فيها ممثلة لنماذج محيطة بهذه الذات في الواقع فقد كان السارد يهتم بتقديم كل شخصية بما تحمله من صفات وما تتبناه من أراء، فتتراءى للقارئ نماذج واقعية من خلالها، وهذا التفرد في حمل لواء القضية (الهوية والانتماء) من قبل السارد المهيمن، من جهة، والتنوع في منح الشخصيات المشاركة في الحكي، من جهة ثانية، هو تمثّل قريب إلى الواقع الذي يحمله وعي المبدع وقارئه على حد سواء.

ثالثًا–صراع (الأنا، الآخر):

نالت العلاقة الإشكالية بين الشرق والغرب ،أو بين الأنا والآخر الحظ الأوفر من اهتمام المفكرين وانعكست بشكل جلي في الأعمال الروائية للأدباء، وفي أبسط تعريف للأنا يورد "فتحي إبراهيم" في معجم المصطلحات الأدبية أن "الأنا تعبير يعني الذات الواعية، وقد يستخدم المصطلح ليشير إلى تلك السمات أو ذلك المكون من مكونات الشخصية الذي يسيطر بأكثر الطرق مباشرة وفورية على الفكر والسلوك، فهو الأنا التي تشعر وتفكر وتميز الشخص عن ذوات الشخصية الأخرى"[11]، ومن خلالها تبرز جملة من الاختلافات التي تميز الآخر عن الأنا ،وذلك من خلال أنّ الآخر هو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي وتتضح إشكالية الأنا (العربية الإسلامية) والآخر الغربي[12] بسبب سوء التفاهم والمواجهة السياسية والعسكرية. أما علاقة الذات به من الناحية الثقافية والاقتصادية والتقنية فقد بدت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها.

ونجد تمثّل هذه الثنائية في الرواية، وهي التي لا تكاد تتفلّت منها الذات المثقفة في الجزائر وغيرها من دول الهامش في العالم، فمراد يمثل الذات التي تتجاذبها أطراف هذه الثنائية، فهو الجزائري الذي تتلمذ على يد السوربوني، ثم يعود إلى الجزائر وبالضبط إلى جنوبها –غرداية– يطارد المرأة الميزابية وكأنه يطارد زئبقا، ولم تكن هذه المطاردة سوى مجالا لدراساته وبحوثه من أجل الارتقاء العلمي، فمراد جاء من بلد أستعمر الأنا، فحطم أسطورة الغوفية والمركزية والتعالي الفرنسي، ورجع هذا الآخر عن طريق الأنا التي أرضعها وعلمها كيف تخترق ذاتها يقول مراد: كنت في غاية السعادة والتشوق لأطل على وجه غرداية لأول مرة... ستكون بالتأكيد مدهشة: ستكون كعروسة الصحراء بكامل زينتها لتستقبلني بأحضان المودة والكرم...إن بني ميزاب قد اختارتهم الصحراء لتفشي لهم أسرارها لأن خزائن ذاكرتهم غنية وعريقة وغير مثقوبة، ومتخمة بعبق تاريخ الصامدين فوق ظهرها... هل يمكن لي أن أراوغهم وأثقب ذاكرتهم ولو بإبرة صينية دقيقة لتشفي لي ببعض حقائقهم الباطنية." [13] ؛لكن مراد يفشل في اختراق المجتمع الميزابي المحافظ الذي تعامل معه بقسوة، حيث يظهر ذلك من خلال شخصية الضاوية التي تعاملت معه بفوقية، وأثبتت دونية الآخر، فحاول مراد في هاته الأثناء أن يكون غازيا وفشل في غزوهم، لأنه يتحرك من خلال أستاذه السربوني، ولأن الضاوية فهمت بأن العلاقة مع الآخر الغرب الذي يمثله مراد ليست علاقة توافق ومثاقفة وحوار بل هناك تقابل حاصل بين الهنا والهناك، "أنت لا تعرف الضاوية هي في مكان وزمان يا أبله... يا أيها السربوني المغرور... ألم تسمع وأنت السربوني والأول في دفعتك كما تدعي بالزواج عن بعد، والزواج

بالأنوار، والزواج بنسمات الرياح الهادئة والعنيفة، والزواج بزمجرة الرعود ولمعان البروق... ألم تقتنع بعد، وتقنع أستاذك السريوني المغفل روحيا والشاطر عقليا وماديا بأن تترك موضوعك القديم"[14]، ها هي الضاوية تعلق التمركز حول الأنا والهنا بمقدساته وعاداته، فالرواية من خلال ما سبق تتحدث عن علاقة الأنا بالآخر والتي تقوم –العلاقة– على التضاد فالشمال المتفوق الذي يمثل المركزية الإشعاعية التي تستحكم في "الجنوب" الفضاء الساحر والمتوحش والمختلف، الذي يمكن اختراقه، لتعيد –الرواية– تشكيل المركز –الشمال– بين جعل الهامش –الجنوب– في المركز، وجعل المركز–الشمال– في الهامش وهذا يفضي إلى الاحتفاء بثقافة الأنا التي يحاول الآخر اختراقها، واختراق فضاءاتها، من قِبَلِ الآخر الهجين مراد الذي يعيش ذاتًا **ممزقةً** انشطرت إلى ذاتين وهذا ما تعبر عنه شخصية **خولة** في الرواية من خلال السارد" تسمرت خولة متعجبة من هذا المخلوق الجميل السريوني التي تبدو ملامحه منقسمة بالتساوي بين ملامح جزائرية تزاحمها ملامح أخرى لم تعرف جنسيتها بعد.."[15] فمراد من خلال هذا المشهد نلحظ عنه أنه يعيش بذاتين حيث تماهت الغيرية مع الذاتية.

رابعًا–الذات بين السرد والحلم:

تظهر فاعلية الذات في الرواية عبر الحلم وتفاعله مع الواقع، ذلك هوما تحقق في رواية مهاجر ينتظر الأنصار حيث تجسد حلم السارد مراد (الذات) من خلال الشخصية الخيالية الوهمية التي تعكس صورة المرأة الميزابية الحرة، والتي ارتبطت آماله بها في أن تقدم له يد المساعدة كونها ميزابية فهي على وعي كبير بموضوع بحثه، والتي سماها مراد **بالضاوية**.

الضاوية دلالة على الضياء والنور الساطع، فمراد يرى فيها بصيص أمله الذي يخرجه من الظلام إلى النور. جاء ذلك في قول السارد: أيها الكائن المجهول الخرافي الذي تخاطبني مستترا خائفا من وراء حجاب للتجسس على الجزائر الميزابيات، ودعوتني (الضاوية) دون إذن مني لأنك تحب العيش في الظلام، ولا تصورني إلا تمثالا لملكة الجمال الميزابية في المنام[16].

كان مراد دائم الاتصال بها، حيث كان يحاورها ويجادلها عن طريق الحمام الزاجل بغية الوصول إلى طرف الخيط الذي يقوده إلى خفايا وأسرار هذه المرأة اللغز، فكانت من بين رسائلها إلى مراد، والتي تقول له فيها: "هل تعلمت شيئا من قصة هاروت وماروت حتى تستطيع أن تصل إلى المرأة الميزابية، وتفهم أسرار الضاوية؟!

لا أتعب دماغك سأقول لك: إذا عرفت الزهرة التي تحولت إلى امرأة، والتي تحايلت على الملكين هاروت وماروت ستعرفني."[17]

خامسا–فضاء السرد/فضاء الذات:

يعد الفضاء الزمكاني أهم مكون نصي في السرد الروائي، بحيث يجتمع الزمان والمكان " لتشكيل فضاء المتخيل الروائي، كما يمثلان المساحة الذهنية التي اصطفت فيها ذكريات وأحداث السيرة الذاتية للروائي المبدع.

1–الزمان:

يمثل الزمن في الرواية الصيرورة والتحول والتواصل فلذلك هو أهم عنصر تقوم عليه الرواية التي تمثل وعي الذات الإنسانية بخصوصياتها التاريخية والحضارية والثقافية، فالرواية فن زمني بامتياز لأنها تستطيع أن تلتقطه وتخصه في تجلياته المختلفة: الميثولوجية والدائرية والتاريخية والبيوجرافية والنفسية، كما أنها أكثر الأنواع الأدبية اندماجا مع متقلبات الأزمنة الراهنة.

يقوم فعل الزمن السردي على حركتي الاسترجاع والاستباق، والاسترجاع(**Analepsie**) يعد "تقنية تدخل ضمن نظام الزمن السردي، وهو مخالفة لسير السرد تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق ويمكن أن يكون هذا الاسترجاع موضوعيا مؤكدًا أو ذاتيًا غير مؤكد، يعمل على إكمال مقاطع سردية سابقة من خلال الاندماج فيها وتنوير القارئ"[18]، وذلك يكون بتسليط الضوء على مجريات أحداث الماضي والعودة إليه، فهو فعل تخييلي يحقق المزية الجمالية، بحيث يتم إعادة صياغة الذكريات والأحداث التاريخية الماضية عبر تقنية الاسترجاع التي تسهم في عملية خلخلة وتكسير خطية الزمن التسلسلي في الرواية، بحيث يتم قطع التواتر المتنامي للسرد بالعودة إلى الماضي واستحضاره ثم إعادة تشكيله ضمن البنية الكلية وتصبح جزء مهما من أجزائه، فإذا كانت مقاطع الاسترجاع... تعد المحكي الثاني من حيث الزمن، حيث تتعلق بالأولى وتتبعه فنياً.

وللاسترجاع علاقة بالاستذكار الذي هو عبارة عن تشكيل زمني ينم عن وعي الذات المبدعة بزمن الذكريات وتقاطعه بزمن الحاضر، كما يترجم رؤية جديدة للزمن التخييلي في ضوء الخصوصية الشخصية. وتكون فاعلية استحضار الماضي في سد فجوات الزمن الحاضر ودمجها وإعطاء تفسير للمواقف المتغيرة في الواقع، يقول باشلارد :(**G.Bachelard**) "إن الذكرى لا تعلم دون استناد

جدلي إلى الحاضر... فالذكرى تعيد وضع الفراغ في الأزمنة غير الفاعلة. إننا حين نتذكر بلا انقطاع، إنما نخلط الزمان غير المجدي وغير الفعال بالزمان الذي أفاد وأعطى."[19]

وتبرز تقنية **الفلاش باك (الاسترجاع)** في رواية (مهاجر ينتظر الأنصار) في الصفحات الأولى من الرواية حيث عاد مراد بإحساسه إلى الماضي أيام الجاهلية حيث كانوا يقتلون بناتهم بغير ذنب وتشبيه حالته التي يعيشها بحال الجاهليين، فشبه مراد قتله لذاكرة أجداده بقتل الآباء لبناتهم في العصر الجاهلي حيث يقول: "أنا أحس أنني عدت إلى الجاهلية الجهلاء بوأدي لذاكرة أجدادي كما كان الجاهليون يقومون بوأد بناتهم ببساطة متناهية"[20]، فالسارد يعود إلى الزمن الماضي ويقوم باسترجاع وقائع من التاريخ القديم.

وفي مقطع آخر يستحضر مراد قصة من القرآن الكريم أثناء حديثه مع صديقه مصباح وهي قصة موسى عليه السلام مع الخضر حيث يقول "لكن وراء ذلك حكمة وأسرار كالغلام الذي قتله سيدنا الخضر، واعترض عليه سيدنا موسى عليه السلام"[21]، حيث شبه مراد قصته بقصة موسى عليه السلام مع الخضر فكل شيء كان يعارض مساره في إنجاز بحثه ومساعيه المبذولة لإنجاحه.

ويتجلى **الاسترجاع** كذلك في قول السارد: "لم تنتزع مني روحي كغيري من رفقاء الجهاد حيث أتذكرهم واحد واحد... عبان رمضان... شعباني... رثدابو... السعيد عبيد..."[22]، فهذا الاسترجاع يتضمن في فحواه تذكر أب مراد (عبد الحميد بن عبد الرحمان البراني) رفقاءه في الجهاد أيام الثورة التحريرية.

لتتواصل هذه التقنية في الرواية وذلك باسترجاع مراد للنصائح التي قدمها له الأستاذ يقول الكاتب "تذكر نصائح أستاذه التي تكررها دائما عليه بين الحين والآخر حين يكاتبه أو يهتف إليه"[23] فمراد في هذا المقطع يسترجع ذكرياته مع "أستاذه السربوني" حين كان يقدم له نصائح حول المرأة بصفة عامة والتي تشكل محور بحثه عن المجتمع الميزابي.

أدّت تقنية الاسترجاع أو الاستذكار دوراً كبيرًا وفاعلا، فمن خلالها يتم تسليط الضوء على ما تحمله الذات من تداعيات الذاكرة وكيف يمكن أن تسهم في تشكل أحداث الرواية، فالزمن الماضي مرتبط بموروث الذات وتجاربها السابقة والتي ستكون محورا هاما في طرح القضية التي تشغل الذات في السرد.

وأما **الاستباق(Le Prolepse)** فهو ذكر حدث قبل وقوعه، أي التنبؤ بما سيحدث (المستقبل القريب أو البعيد)، "ويحدث فيه أن يلجأ المؤلف إلى ذكر حوادث في وقت يسبق الزمن الذي ينبغي أن يكون موقعه القصة (...)، وهو شيء يسمح للسارد أن يومئ إلى المستقبل"[24] تصوير مستقبلي

لحدث سردي سيأتي مفصلا فيما بعد، إذ يقوم السارد باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه، أو يشير (السارد) بإشارة زمنية أولية تضيء حدثا ما سوف يقع في السرد، وهذه الحركة تمنح القارئ حالة من التوقع والانتظار لما سيحدث مستقبلا في السرد، وهذا هو المظهر القرائي الذي يتجلى من خلاله الاستباق في الرواية، أما المظهر الآخر فهو نصي، ويتجلى من خلال الاختزالات أو المحذوفات المحققة للكثافة الزمنية، ولهذا يُعد الاستباق تقنية زمنية تتجلى بشكل واضح في الروايات التي تتداخل والسيرة الذاتية.

شهدت حركة استباق الزمن في رواية مهاجر ينتظر الأنصار عدد كبيرًا من النماذج منها قول مراد: "وافرحتاه من هذا الجمال الطبيعي الخلاب... بالتأكيد ستفرح أمي وخطيبتي الصافية بهذه الصور"[25] فمراد هنا يتوقع بأن أمه وخطيبته سيسعدان عند رؤيتهما للصور التي التقطها بعدسة كاميرته.

ويتجلى –الاستيباق– أيضا من خلال قوله: "كنت في غاية السعادة والتشوق لأملل على وجه غرداية لأول مرة... ستكون بالتأكيد مدهشة... ستكون كعروسة الصحراء بكامل زينتها..."[26] فالبطل هنا يتنبأ بما ستكون عليه غرداية (ستكون آية في الجمال).

كما يظهر الاستباق في قوله "غاب مراد عن الوجود ثم داهمه هاجس مرعب من تحيله لعطب سيطرأ على سيارته في هذه المفازة"[27]، ومراد هنا يتوقع بأن شيء ما سيحصل لسيارته في الصحراء، وقد وقع ذلك لاحقا أي أن إحساسه وتوقعه في محله.

وورد كذلك في قوله: "سأبحث عن الحمام الزاجل، وأبحث بالاستبيانات في قصاصات ورق إلى كل الاتجاهات بالتأكيد سيكون الرد سريعا عن طريقهن... سأبحث عن خبير في هذا الشأن"[28] فبطل الرواية مراد فكر في البحث عن حمام الزاجل ليحل مشكلته عن طريق بعثه بالاستبيانات إلى كل النواحي آملاً أن يعود إليه بالرد والجواب الذي يبحث عنه، كما فكر أيضا في إيجاد شخص خبير في ذلك المجال لمساعدته.

ارتبط حلم الذات باستباقات زمنية أدت دورها بشكل واضح في تشكيل الصورة التي تأمل الذات أن يكون عليها حلمها، كما ارتبطت الاستباقات بالرؤيا، وهو مصطلح شعري يحمل مفهوم استشراف المستقبل، والرؤيا أمل الذوات المهمومة المثقلة بحجم القضية الكبرى التي تشغلها، ولذلك تتخطى تلك الذات في الرواية حدود الموجود إلى حدود المأمول حتى تنفس عن حالها المهمومة والمثقلة باحثة عن أمل الانفراج.

2-المكان:

يتشكل الفضاء المكاني في الرواية بحسب المعطيات التي تقدمها الشخصيات والأحداث والسارد، فيتحول من فضاء واقعي محدد المعالم مسبقا إلى مكان إبداعي يحمل خصوصية الخلق والبناء الفني، فقد أصبح المكان في التجارب الروائية الجديدة تركيبة بنائية يكشف الروائي من خلالها عوالم تعبر عن رؤاه ووجهات نظره، لذا يعرفه **يوري لوتمان**(**Youri Lotman**) بأنه مجموعة من الأشياء المتجانسة (من الظواهر أو المجلات، أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة... إلخ) تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الاتصال والمساقة...[29]؛ فهو عبارة عن مجموعة من العناصر المتداخلة فيما بينها تجمعها روابط متشابهة ضمن العلاقات المكانية.

لعل علاقة الذات بالمكان مرتبطة إما بالذاكرة أو بالطموح، والمكان في ذلك يرتبط بعالم الرواية كونه أحد عناصرها المشكلة لبنائها، من جهة، أو يشكل تراكما معرفيا مرتبطا بوعي الذات وخبراتها وتوسع مداركها. ولعلنا في محاولة البحث عن تنوع الأمكنة في الرواية، إنما نبحث عن هذه العلاقة وتجلياتها في النص. يظهر فضاء السرد في الرواية من خلال الأماكن المختلفة والتي يمكن تصنيفها إلى: **أماكن مغلقة وأماكن مفتوحة**.

أ-الأماكن المغلقة:

وهي أماكن محدودة المعالم، ضيقة المساحة، تحد من حرية ساكنيها وحركتهم، وقد تجسد هذا النوع من الأماكن في الرواية في: **الفندق، الجامعة، الثانوية، المعتقل، والمستشفى**.

- **الفندق:**

لجأ مراد بطل الرواية إلى **الفندق** بعد تعطل سيارته وسط الصحراء، إذ لم يجد مكانًا آخر غيره يلجأ إليه، ويحتمي فيه من حيوانات ومخاطر الصحراء، هذا الفندق يقع في مدينة غرداية التي ذهب إليها البطل لإنجاز بحث تخرجه، فبعد رحلة طويلة ملؤها الخوف والفزع وحب الاستكشاف، والتمتع بمناظر الطبيعة الآسرة ارتمى مراد في أحضان الفندق باحثا عن الراحة والسكينة، وهيهات أن يكون له ذلك، فبرغم من توقف جسم مراد عن الحركة، إلا أن عقله لم يكف عن التفكير باسترجاع ما مرّ به، يقول: "تمكن من إصلاح سيارته بعد أن رحبت به الصحراء وضيفته حتى بزوغ الفجر... وصل إلى غرداية في الصباح منهوكا ولكنه لم يعبأ بذلك، فصال، وجال ليستمتع بالاكتشاف العظيم حتى المساء... آوى إلى الفندق (...) ارتمى ككيس هش من نخالة فوق سريره، لكن عقله لم يتوقف عن استرجاع صور من

محطات حياته، ومما عاشه في تجربته القصيرة في طريقه إلى غرداية"[30].هنا تجلى المكان الذي يرتبط بزمن الوقوف مع الذات حتى تعود إلى ذاكرتها.

–الجامعة:

جاء ذكرها في الرواية باعتبارها المكان الذي درس فيه مراد علم الاجتماع وبالضبط جامعة السربون بفرنسا، حاز على شهادة الليسانس فيها، كان طالبًا نجيبًا، محبًا للعلم والدراسة، متفوقا عن باقي الطلبة بما في ذلك الفرنسيون الذين استطاع هزيمتهم في عقر دارهم، أهله للحصول على أطروحة دكتوراه الدولة والعمل عليها، يقول مراد: "كنت أدرس علم الاجتماع في جامعة السربون (...)، تحصلت على الليسانس (...)، كنت متفوقا على كل الفرنسيين، وعلى رأس دفعتي في الدراسات المعمقة (...)، اختارني استاذي السربوني المرموق لإنجاز بحث أكاديمي لتحضير أطروحة دكتوراه الدولة"[31]، وكان لأستاذه ذلك وما على مراد إلا الانصياع لرغبته، فالجامعة تتعلّق بمستوى مراد العلمي، وثقافته، وخلفيته المعرفية.

– الثانوية:

هي الأخرى مؤسسة تعليمية يقصدها التلاميذ طلبًا للعلم وتحصيلا للعلم، وهذا بعد النجاح في الطور المتوسط. اشتغل فيها مراد أستاذًا في اللغة الفرنسية بحكم أنه أمه فرنسية فقد ورث عنها اللسان الفرنسي حيث قال: "عُيِنْتُ مدرسا للغة الفرنسية في الثانوية (...)، كان أبي قد اختفى من وجودي، وربتني أمي الفرنسية"[32]، فكان من نتائج تربيته هذه فقدانه للغته الأم، ولغة أجداده، وعدم إتقانه لها، حتى وإن تمكن منها فإنها لا تخلو من اللهجة الفرنسية، يقول مراد: "لا أعرف من العربية غير كلمات قليلة، وأنطقها محرفة بتأثير اللكنة الفرنسية."[33]

ورغم أن مراد يعمل في الثانوية مع الميزابيين (في غرداية) إلا أنه وجد صعوبة في الحوار معهم وفهم لهجتهم التي تنم عن سخريتهم له وكأنه غير مرحب به بينهم، يقول: "كل الميزابيين الذين أتعامل معهم في الثانوية يجاملونني بتحيات وعبارات تنتهي عند خلقها لجدار نفسي متين (...)، هم يتكلمون معي بالعربية الدارجة أو العبارات الفرنسية المكسرة التي تتضمن شيئا من السخرية وعشية لمن يخاطبوهم، ثم بمجرد أن يظهر ميزابي آخر تتغير اللهجة وأكاد أفهم منها شيئًا"[34]، هذا ما شكل صعوبة ومعضلة بالنسبة لـ مراد الذي فقد الاحساس بهويته وسط زملائه الأساتذة الميزابيين.

كما إرتبطت **الثانوية** باسم خولة التي تدرس العلوم الاجتماعية، يقول مصباح: "لا تحزن فقد وجدت لك الحل الشافي الكافي لمشكلتك عليك بالأخت خولة الإخوانية التي تدرس العلوم الاجتماعية في الثانوية"[35]، فمصباح دل مراد منقذهُ، ومفتاح نجاح بحثه المجهول النهاية.

-المعتقل:

المعتقل أو السجن وهو مكان يرمز إلى القيد أو فقدان الحرية إذ يشكل عالم مناقض لعالم الحرية، تنتقل إليه الشخصية مكرهة، تاركة ورائها فضاء الخارج إلى عالم مغلق هو الداخل المحدود، فتنطوي على نفسها بعدما كانت منفتحة على المجتمع والوجود، إضافة إلى كونه "فضاء إقامة جبرية في شروط عقابية صارمة تجعل النزيل يتحول من العالم الخارجي إلى العالم الذاتي (...)، وتثقل كاهل النزيل بالإلزامات والمحظورات، فالمعتقل يحد من حرية الإنسان ويكبحها، ويفرض عليه القيام بأفعال معينة مكرها عليها، وقد سيق إليه مراد إثر قيام مظاهرات في العاصمة فكان كبش فدائها وضحيتها يقول السارد: "تعالت أصوات الزغاريد وتلاحين عليها نحيا وعليها نموت (...)، فاضت المظاهرات كالسيول ملأت كل أزقة العاصمة وشوارعها من جموع وأشتات من كل عواصم الولايات (...) جرفت مراد في خضمها"[36]، حيث ألقي القبض عليه وأخذ إلى معتقل رقان، لكن أباه لم يقف مكتوف الأيدي يشاهد ما يحدث لابنه، حاول بشتى السبل والوسائل إنقاذه من مأزقه من خلال تواصله مع مسؤول معتقل رقان وكتابته رسائل عديدة له ولمعارفه آملا أن يقدموا طوق النجاة والتمكن من إخراج ابنه من المعتقل، يقول مراد: "كتب أبي عشرات الرسائل بعدها إلى يعتقد المسكين النائم المغفل أنهم مازالوا تحت رحمته"[37]، إلا أن جهود أبيه ومساعيه لم تثمر وضاعت هباءً منثورًا.

كما أن الجماعة الخاطفة لـ مراد وضعت شرطا لابد منه مقابل إطلاق سراحه، ويتجلى ذلك في قول أحدهم: "لا خروج لك من المعتقل، ولو توسط لك رؤساء العالم كلهم إلا بعد توبتك والتعاون معنا لنبعثك سفيرًا فوق العادة إلى فرنسا لتكون فخًا لكل الخونة والعملاء والقتلة"[38]، وما كان على مراد إلا التعاون معهم وتنفيذ شرطهم مقابل منحه حريته، حيث يقول: "استسلمت للأمر الواقع، ونسيت كل الأمجاد والأسياد والأحقاد والأعلام والأخيار والأبرار والأحبار، وانخرطت في جماعة المجانين الذين حصدتهم معنا:صيحة: (عليها نحيى وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله"[39]، استعاد مراد حريته، يقول: "كانت سبعة أيام بعد إطلاق سراحي من المعتقل من أسعد أيامي بوجودي بين أمي وخطيبتي

الصافية"[40]، وكان المعتقل بذلك تجربة مريرة أحدثت تغييرا في شخصيته، وكان المعتقل أيضا، المكان الذي يفصل بين أن يعيش الإنسان حرا بأفكاره أو أن يقيّد فتموت أفكاره.

– المستشفى:

بالرغم من كونه مكانا منفتحا على عامة الناس يطلبون فيه التداوي والتعافي، إلا أنه يمثل بالنسبة لمراد مكانا معتما فقد فيه من استدل بهم في حياته نحو تحقيق مراده أو مراد الذات، ليفقد مراد خطيبته في المشفى، فبعد خروجه من معتقل رقان ذهب إلى الفندق لأخذ أمه وخطيبته الصافية إلى المطار، حيث يقول: "طرت إلى الفندق لأصاحب أمي وخطيبتي إلى المطار في الصباح الباكر بعد أن أديت صلاة الصبح"[41]، وما كادوا يصعدون السيارة حتى وجدوا أنفسهم في المستشفى جراء الرصاصات التي استهدفتهم، حيث أصيب مراد وأمه بجروح طفيفة، أما الصافية فقد دخلت في غيبوبة فتم نقلها إلى مستشفى باريس لعلاجها، ولم تقوى على مواجهة الموت وفارقت الحياة، يقول مراد: "وصلنا إلى السيارة فَتَحْتُ الباب لأمي وخطيبتي ليركبا (...) حتى سمعا رصاصًا منطلقا من قربنا، وكانت الفاجعة ولم أستفق إلا في المستشفى، فجرحت في كتفي الأيسر وأمي في فخضها الأيمن، وخطيبتي في صدرها فانتزعت الرصاصات الغادرة المجهولة من أجسادنا فتماثلت للشفاء أنا وأمّي، وخطيبتي (...) دخلت مسكينة في غيبوبة... نقلت إلى المستشفى في باريس على جناح السرعة (...) فلفظت أنفاسها قبل وصولنا إلى باريس."[42]

وفقد مراد شيخه في المشفى كذلك بعد تدهور حالته الصحية، إذ قام مراد بنقله إلى مستشفى باتنة، حيث كانت صحته تتدهور بمرور الأيام، كما ورد على لسان مراد: "عاودت الشيخ الجليل وعكته الصحية مرة ثانية، وكانت شديدة فنقلته إلى مستشفى باتنة، وكانت تشتد عليه في كل يوم يمر"[43]، فحالته هذه لا تبشر بالخير، وبعثت في نفس مراد الشعور بالخوف والهلع من المستقبل وما ينتظره في حالة ما فارق الشيخ الحياة "آنذاك كانت سحابة سوداء من الحزن لا تبرح خيالي، وهواجس الخوف من مستقبلي دون الشيخ الذي تشرب روحه من روح (لالة فاطمة)الأوراسية (...) كيف أستطيع أن أكمل مشوار حياتي دون شيخ الشيوخ"[44]، فمراد في قرارة نفسه خائف من الضياع واستحالة الحياة دون شيخه الذي تعود عليه وبحثه المنوط به.

عمّت عتمة المشفى حياة مراد، وتعتمت طريقه التي رسمها في مخيلته لإكمال رحلة بحثه مع الشيخ الجليل إذ رحل هذا الأخير إلى الدار الباقية، فارق مراد وتركه وحيدا يتخبط مع بحثه الملعون الذي

لم يجد حلاً له، يقول مراد: "لم تمر إلا أيام قلائل، فكانت الفاجعة بفقدي لشخصي العزيز، فودعته إلى مثواه الأخير في يوم شبيه بيوم وداعي لخطيبتي الصافية، ودفنته إلى جانب قبر (لالة فاطمة) الأوراسية نزولا عند رغبته ووصيته."[45]

ب–الأماكن المفتوحة:

تتسم هذه الأماكن بشساعة المساحة، مساحتها غير محدودة، وغالبا ما تكون في أحضان الطبيعة، ومن بين هذه الأماكن الواردة في الرواية نجد: **غرداية، المقبرة، الهقار الطاسيلي، رقان.**

– غرداية:

تعد مدينة غرداية من أجمل المدن الجزائرية الساحرة فهي قاعدة منطقة بني ميزاب ومن أشهر المدن الصحراوية، توجد مدينة غرداية حول جنوب الأغواط وعلى الحافة اليسرى من وادي مزاب، وتسمى هذه المنطقة بالشبكة أو بلاد مزاب.

يعود أصل تسميتها بهذا الاسم إلى حكاية بابا ولد جمعة، الذي كان سائرًا الطريق في إحدى الليالي إذ لاح له نور ضياء من بعيد فذهب باتجاهه، وما إن فعل ذلك حتى وجد نفسه أمام غار تقطنه امرأة لوحدها، فارتاحا لبعضهما، ثم تزوجا وعاشا هناك متخذين الغار مسكنًا لهما، فكان نواة لمدينة لمدينة سميت باسم امرأة وهي داية، فقيل غار داية ومعناه الغار الذي تسكنه داية.

وغرداية هي المكان الرئيسي الذي وقعت فيه أحداث الرواية؛ فقد بدأ السارد روايته بوصفها قائلا: "فيحوم في سماء مدينة غرداية تلك اللؤلؤة المكنونة والجوهرة المصونة في صدفتها، أو الحمامة الرابضة في عشها النخيلي بين صخور هضابها الصحراوية كما كان يتخيلها من خلال صورها الرائعة المفشية ببعض أسرار وجهها الخجول، وصفها بصفات الحسن والجمال وألبسها ثوبا يبرز مفاتنها الساحرة، وذلك بوصفها باللؤلؤة والجوهرة، هذان الأخيران يرمزان إلى قمة الجمال وندرته.

مثّلت غرداية مطان التقاء الأنا (الذات) بالآخر (الغرب)، فرحلة بحث مراد عن الميزابية في بلاد غرداية يمثل شوق الغرب بحثا عن حضارة الشرق الساحرة، وهي من الدراسات الأكثر انتشارا في الدرسات المقارنة بين حضارة الشرق والغرب، كان مراد متلهفا للذهاب إلى غرداية وزيارتها، ومشتاقا لذلك اشتياق الأم لابنتها: "وكان متشوقا لرؤيتها بكامل زينتها من فضاءها المشرق (...) فتبدو كأنها تريد أن تستيقظ أختها من الرمال الرابضة لتخفف عنها عمَّا ألمّ بها من ضنك أقعدها فأبقاها طريحة فراشها ممددة في الآفاق (...)، ثم ينفرج الجو، فتزيده "أشعة الشمس أكثر لمعانا فيتراقص كأنه مرايا عملاقة تحركها أياد

مرتجفة"[46]، فالسارد هنا شخّص غرداية على هيئة إنسان نال منه المرض قسطه، وألزمه الفراش بعد تلونها بالغيوم السوداء التي تظهرها شاحبة الوجه كالإنسان المريض تماما.

-المقبرة:

وهي مكان يدفن فيه الأموات في القبور، والقبر هو الحفرة التي تحتوي الجسد بعد فناءه لتعني نهاية الحياة بالنسبة للكائن الحي وانتقاله إلى عالم آخر، فهي المكان الشاهد على وجود الإنسان في الكون، فالإنسان لا محالة للقبر مآله الأخير.

تحدث السارد في الرواية عن مقبرة بني ميزاب عند قيام مراد والشيخ بنزهة لتغيير الجو، وبينما هما كذلك حتى ألفيا نفسيهما داخل المقبرة، يقول الشيخ ضاحكا: "لقد وجدت لك حلا لمشكلتك عليك بتوزيع الاستبيانات على الأموات من النساء الميزابيات، وسيجبن عليها في الحال"[47]، فكلامه ينم عن خفة دمه، ورد مراد قائلا له: "أنا أيضا وجدت حلا لمعضلتك... عليك بسؤال الشيوخ الكبار الراقدين هنا سيخبرونك الخبر اليقين عن جذورك"[48]، حوارهما هذا يدل على استحالة وجود حل لمشكلتهما، وفقدانها الأمل في ذلك، وبما أن المقبرة مكان الأموات فسيصعب عليها التمييز بين الشباب والشيوخ وبين الرجال يقول الشيخ: "يا بني مراد كيف نميز بين النساء والرجال؟ وكيف نفرق بين الشيوخ والكهول والشباب"[49]، لأن الإنسان عندما يوارى التراب تتحلل جثته ولا يبقى منها سوى العظام ولا يمكن التعرف على جنسه وهويته.

فالشيخ يرى بأن الموت هو خلاص الإنسان من مشاكله وهمومه في هذه الحياة، وأنه مهما كان حجم المشاكل (كبيرة أو صغيرة) لابد من وجود حل جذري ونهائي لها. قد يوحي الكلام في حضرة المقبرة باليأس، ولكنه يحمل بين جنباته التنبه إلى حقيقة وجود الانسان في هذه الحياة وحقيقة مآله.

-جبال الهقار والطاسيلي:

الهقار أو الأهقار هي ن سلسلة جبلية تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر بولاية تمنراست، وهي مشهورة بمناظرها الطبيعية الخلابة الساحرة.

قرر الشيخ قيامه برحلة إلى جبال الهقار رفقة مراد لاكتشاف تاريخ المنطقة، ويظهر ذلك في قول السارد: "وفي الصباح قرر الشيخ أن نقوم برحلة بحث، واستكشاف، وسياحة في جبال القهار، وكان أملنا أن نجد عند نسائه وعجائزه وشيوخه ومخطوطاته، وفي رسومه، وكتاباته على الصخور ما يرشدنا إلى الظفر ببغيتنا معًا، ولعلي سأعثر على (لالة نفسية) التارقية في محافل الرقص والغناء في عيد السبيبة"[50]، آملين

بذلك إيجاد الجواب الشافي والكافي لأسئلتهما المحيرة، مستعينين في ذلك بسكان تلك المنطقة، ورسومات تاريخها اللافتة للنظر، التي تجسد تاريخها وحضاراتها.

كما تمثل الطاسيلي منطقة جبلية تقع في الجنوب الجزائري، وتمثل متحفا طبيعيا لم تتوفر عليه من الآثار ورسومات، تعكس صورة عن مختلف مجالات حياة الإنسان في العصر القديم.

كان مراد والشيخ مسكونين ومشبَّعين برغبة جامحة في معرفة خبايا الطاسيلي وحضارتهما العريقة الضاربة في جذور التاريخ، ذهبا إليها رفقة الدليل أو المرشد الذي عرفهما على المنطقة جيدا يقول مراد: "وكانت وجهتنا البحث عن دليل عليم بكل أسرار طاسيلي ناجّر أو طاسيلي نعاجر، لقد نجحنا بعد لأي في اهتدائنا إلى دليل نابغة حكيم عليم[51]."

كما أن السارد وصف كهوف الطاسيلي على لسان الدليل "ستعيشان في كون آخر حين تشاهدان كهوف الطاسيلي، وهي كتل من تشكيلات الصخور البركانية والرملية الغريبة الشكل والتي تشبه خرائب وأطلال لمباني مدن، وتعرف باسم الغابات الحجرية (...) وتزخر جدران هذه الكهوف بمجموعة من النقوش الغريبة التي تمثل حياة كاملة لحضارة عريقة"[52]، فالدليل هنا بصدد تعريف منطقة طاسيلي وكهوفها الأثرية لـ مراد والشيخ، إلى جانب غناها بالنقوش والرسومات التي ترمز للحضارة الغابرة وللزمن الذي عاش فيه الإنسان قديما.تمثّل هذه الأمكنة بحث الإنسان الدائم عن أصله وجذوره التاريخية، فالذات الملتصقة بهويتها الأصل، فُطرت على حب العودة إلى تاريخها الذي تعظمه في قرارة نفسها.

-رقان:

هي دائرة أو بلدية من دوائر ولاية أدرار، يعود أصل تسميتها إلى اللغة الأمازيغية والتي تعني عجوز الإبل أو مراح الإبل. حينما تُذكر رقان يعود الإنسان بذاكرته إلى الوراء ويستحضر الفعل المشين الذي قامت به فرنسا في تفجيرها للقنبلة الذرية، وما خلفتها من آثار وأضرار سواء على البيئة أو على الأجساد البشرية.

كما تمثّل في الرواية منفى مراد، يقول: "التقط سمعنا من ضجيج اشتعل أواره بينهم اسم رقان... ضحك بعضنا ضحكة المأساة، وقالوا: نحن في رقان المنفى الجحيم في أقصى جنوب الجزائر... استرجعت ذاكرتي هول القنبلة النووية التي فجرت فيه"[53]، فرقان هنا تمثل مأساة مراد ومن كان معه، إذ ارتسمت على شفاههم بسمة ملؤها الحزن والألم وتشابهت عليهم الأيام، فصاروا لا يميزون بينها، ولا يحسون بالوقت كيف يمضي، يقول: "الأيام تشاكلت حتى أصبحت يوم واحدًا... فقدنا الإحساس

بالزمن، فدفناه في المكان السرابي الهائم بلا مكان"[54]، فرقان أفقدتهم حواسهم وشعورهم بالأشياء زارعة فيهم اليأس مجرّعة إياهم كؤوس الآلام المريرة .فرقان، منفى الذات ورمز المعاناة والعذاب والتاريخ المأساوي الدموي.

خاتمة:

من خلال تتبع تجربة الذات في رواية "مهاجر ينتظر الأنصار"، وجدناها تصدر عن رؤية نقدية تجاوزية للواقع الجزائري؛ من خلال تعرية علاقة الأنا الجزائري بالآخر الفرنسي وهيمنته التي بدت في مظاهر البحث المادي عن الحياة، في مقابل البحث الدفين للأنا عن الجذور والأصول والهوية.

وإلى جانب ذلك توصّلت الدراسة إلى جملة من النتائج نجملها في الآتي:

-تعد الرواية في احتفائها بالذات، عملاً إبداعيًا يرتمي في رحاب الكتابة الذاتية ويحمل خصوصية التشكيل السردي الروائي، فتتداخل خطابات الذات (التاريخية، والاجتماعية والفكرية والصوفية ...) بالخطاب السردي الروائي.

-امتزج في الرواية الاحتفاء بالذاتي والاحتفاء بالتخيلي، حيث يحضر سرد الذات من خلال وجود عناصر نصية جمالية تنصهر فيها الشخصية (البطلة /الساردة) والمؤلف (المبدع).

-بنى الروائي عالمه الروائي من تعاضد الساردين والشخصيات في تحقيق طموح الذات، وتحقق تبعا لذلك اختزال تعاضد المجتمع الجزائري في تعاضد تلك الشخصيات.

-تميز الزمن في الرواية بالتنوع والتشظي، حينما امتزجت الذاكرة بآمال مستقبلية في جوف الحاضر المقلق.

-برز عنصر المكان في الرواية حاضنا للأحداث مرتبطا بتقلبات الذات بين حاضرها وماضيها ومستقبلها.

هوامش:

[1]- Gerard Genette, «palimpsestes», la littérature au second degré, édition du seuil ,paris ,1982 ,p :10.

[2]- عثمان بدري: وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، موفر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، د ط، ص، 30.

[3]-سورة التوبة، الآية 100.

[4]- محمد عزام: شعرية الخطاب السردي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2005، ص85.

[5]- عبد المالك مغشيش، نجوى منصوري: تداخل السرد التخييلي والسير ذاتي في التجربة الروائية لزهور ونيسي، أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية –مخبر الموسوعة الجزائرية–، جامعة باتنة 1، الجزائر، مج: 1، ع:1، مارس 2019م، ص 76.

[6]- Philippe Lejeune ,le Pacte autobiogrqphiquecoll, « Poétique »,édition du seuil,1975,p44

[7]- يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، سلسلة دراسات نقدية، دار الغرابي، بيروت، ط1، 1990، ص 117، 118.

[8]- معمر حجيج: مهاجر ينتظر الأنصار، دار قانة للنشر والتوزيع، باتنة، الجزائر، ط:1، 2016م، ص 5.

[9]- الرواية، ص 17.

[10]- الرواية، ص 153.

[11]-إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، د ط، 1986م، ص 48.

[12]- Phillipe Lejeune, «c'est un autre» , edition du seuil, Paris,1980,p :50

[13]-الرواية، ص10.

[14] -الرواية، ص178.

[15]-الرواية، ص41.

[16]- الرواية، ص 75.

[17]- الرواية، ص 77.

[18]-عالية محمد صالح: البناء السردي في روايات إلياس خوري، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط:1، 2005، ص27.

[19]-غاستون باشلار: جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر،1982، ص84.

[20]- الرواية، ص 20.

[21]- الرواية، ص 37.

[22]- الرواية، ص 59.

[23]- الرواية ص 28.

[24]- إبراهيم خليل: بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:1، 2010م، ص57.

[25]- الرواية، ص 8.

[26]–الرواية، ص 10.
[27]– الرواية، ص 11.
[28]– الرواية، ص 27.
[29]– محمد بوعزة: تحليل النص السردي– تقنيات ومفاهيم–، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط:1، 2010، ص99.
[30]– الرواية، ص 13.
[31] – الرواية، ص 13.
[32] – الرواية، ص 13.
[33] – الرواية، ص 13.
[34]– الرواية، ص 16.
[35]– الرواية، ص 36.
[36]الرواية، ص 113.
[37]– الرواية، ص 113.
[38]– الرواية، ص 127.
[39]– الرواية، ص 130.
[40]– الرواية، ص 134
[41]– الرواية ص 135.
[42] – الرواية ص 136.
[43]– الرواية، ص 183.
[44]– الرواية، ص 183.
[45]– الرواية، ص 184.
[46]– الرواية، ص05.
[47]– الرواية، ص 65.
[48]– الرواية، ص 65
[49]– الرواية، ص 65.
[50]– الرواية، ص 85.
[51]– الرواية، 85.
[52]– الرواية، ص87.

[53]- الرواية، ص115.

[54]- الرواية، ص 115.